ظهور الاسلام

للمستشرق الإنجليزى (ستيفن رانسيمان)

عرضه الأستاذ عبد الموجود عبد الحافظ

فى الحركات الكبيرة التى غيرت وجه التاريخ ، لم يحدث أن أحرزت واحدة منها على اختلاف دوافعها ، من النجاح السريع المدهش ، ما أحرزه الإسلام ، ولمعرفة أسباب هذا النجاح ، والعوامل التى ساعدت على انتصار الإسلام وسرعة انتشاره ، لابد من الإلمام ولو سريعا بتاريخ حياة محمد عليه السلام الذى دعا إلى هذا الدين ، فقد يلون فى هذا جلاء بعض الأمور التى تهدينا إلى ما نحن فى حاجة إلى معرفته .

ولد النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) بعد ميلاد المسيح عليه السلام بحوالى ٥٧٠ عاما ، فى الوقت الذى أخذت الوثنية فى الانتشار ، وبدأت أفكار بعض المسيحيين تتبلبل .

فى ذلك الوقت أخذت فكرة القوم الذين يسمون الأحناف تظهر وتنتشر بين العرب ، كما ظهر الشعراء العرب الذين دعوا إلى الوحدانية كأمية بن أبى الصلت وزهير بن أبى سلمى وغيرهما .

كان كل هذا داعياً عقلاء العرب إلى التفكير فى أمر هذه الآلهة المتعددة وخاصة فى تلك المدينة التى تتناحم العالم المتمدين والتى تتمتع بمكانة ممتازة بين مدن شبه الجزيرة العربية ، لأن فيها ذلك البيت المقدس الذى كانت تتجه إليه أنظار كثير من الناس فى جميع أنحاء الجزيرة ، بل وفى بعض الجهات المحيطة بها .

وقد كان مولده فى أسرة من أسر هذه المدينة ، ذات مكانة مرموقة وشأن معروف ، إذ كان منها المشرفون على الكعبة والقائمون بالعمل فيها .

فلما بلغ سن الأربعين من عمره اختاره ربه ليبشر الناس بدينه الجديد ويدعوهم إلى التعاليم السماوية التى كادت أن تنسى بين الناس : وكان اول من وجه إليهم الدعوة هم أهله وعشيرته الأقربون .

وكل دعوة جديدة ، لقى محمد (عليه السلام) من قومه صلابة وعناداً ، ومكراً واستكباراً ، ولكنه ثابر على دعوته متحملا أذاهم ، حتى انضم إليه بعض أشراف قومه وكثير من المستضعفين الذين زادوا فى مسئوليته .

ولما اشتد عليه وعلى من اتبعه الإيذاء أمره ربه بالهجرة فى حوالى سنة ٦٢٢ ميلادية ، فهاجر من مكة إلى المدينة ، بعد أن ضمن له أنصاراً ينصرونه .

تلك الهجرة التى يؤرخ بها المسلمون تاريخهم .

هناك استجاب القوم لدعوته والتفوا حوله وأعانوه على نشر دينه سواء من قدم من مكة مهاجراً أو من هو من أهل المدينة ، وهؤلاء وأولئك استطاع التغلب على جميع من ناهضوه فى الجزيرة العربية ، وصار الزعيم الأكبر للبلاد العربية ، النافذ الكلمة المطاع الأمر .

ولما حضرته الوفاة بعد الهجرة بعشر سنوات ، كانت جيوشه قد أخذت أهبتها لتجتاز حدود الجزيرة العربية إلى ما جاورها من البلدان والممالك .

ولم تتوقف هذه الجيوش إلا بمقدار موت إنسان وتولى الأمر غيره .

وقد يدهش الإنسان للسرعة التى تم بها تولى الحكم بين هؤلاء العرب الذين كان ينشب بينهم القتال لأتفه الأسباب .

* * *

ولم تمض سنوات تزيد على عدد أصابع اليد الواحدة حتى سقطت الشام والعراق فى أيدى المسلمين .

وفى سنة ٦٥٠ م استولوا على مصر ، وأخذت الدولتان الكبيرتان اللتان كانتا تحيطان بالجزيرة العربية تنكمشان سريعا ، وقبل أن تأتى سنة ٧٠٠ م كانت الامبراطورية الإسلامية تمتد من المحيط الأطلسى غربا حتى نهر السند شرقا .

ولم يكتف المسلمون بذلك بل واصلوا زحفهم سنين طويلة حتى وقفت جيوشهم على أسوار القسطنطينية .

وقد عرف المسلمون كيف ينشرون دينهم إلى أن وصل إلى بلاد التركستان وأندونيسيا شرقا ، واقتحموا مجاهل أفريقيا تلك البلاد التى كانت لا تزال سرا

غامضا يخشى الاقتراب منها الكثيرون ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل إنهم وصلوا إلى قلب أوروبا نفسها .

ونستطيع أن نرجع هذ النجاح السريع المدهش إلى أسباب منها :

عبقرية محمد :

المؤرخون الذين أرخوا للشرق يقولون إن للتاريخ الشرق خاصية تجعلنا نعجز عن تحديد الدوافع والنتائج التى ترتبت عليها .

والشرق مهد الديانات ومهبط الرسل ، وفيه ظهرت المعجزات ، فعيسى عليه السلام وديانته ومعجزاته ، وموسى وداود وغير هؤلاء كثير من الذين ضمهم الشرق وكان له شرف الحظوة بهم .

وقد لقى هؤلاء جميعا فى سبيل نشر دعوتهم كثيرا مما لا يقل عما قاساه محمد (عليه السلام) فى سبيل نشر دعوته . لقى هؤلاء من قومهم ومن غير قومهم العنت الشديد ، كما لقى محمد عليه السلام ولكن دعوات هؤلاء الرسل كانت تزحف ببطء شديد ، بل إن بعضها كاد أن يتوقف بموت نبيها ، بعكس ما حدث فى دعوة محمد ، فقد تم انتشارها على نحو عجيب فيه شىء كثير من خصائص المعجزة مما يجعلنا نقول مع المسلمين إن الله كان يريد حقا أن ينصر عباده المخلصين وأن يتوج أعمالهم بالنجاح .

وقد كان لشخصية محمد عليه السلام أكبر الأثر فى سرعة انتشار الإسلام إذ كان يعرف كيف يسوس دعوته على [illegible] ، ومن لم يستجب لها كان يرحب [illegible] بالعبقرية وقوة الشخصية .

فمحمد عليه السلام من أولئك العباقرة الموهوبين بين القلائل ، الذين ظهروا دون أن يخضعوا لقانون علمى أو قاعدة معروفة ، مما كان متعارفاً عليه بين بنى عصره ، فهو صاحب عبقرية فريدة فى نوعها ، ومع أنه كان يحس بعبقريته ، إلا أنه لم يكن مغروراً ككثيرين غيره من العباقرة الذين لم يبلغوا ما بلغ ، وبالرغم من وثوقه بنفسه وبإخلاصه البالغ وعقيدته الراسخة ، كان يتحلى بكثير من الصفات التى تحلى بها الأنبياء السابقون وحاول التحلى بها بعض الساسة الحاكمين .

ولم يترك محمد عليه السلام الحياة إلا بعد أن ترك لأتباعه قانونا وحكومة ، يرى

الباحث فيهما إلى أى مدى كانا يستجيبان لمطالب القوم ويتمشيان مع ضرورات حياتهم ويدفعانهم إلى العمل على نشر الاسلام والدفاع عنه .

وفى مقدور الباحث المنصف أن يقول إن محمدا ـ عليه السلام ـ كان من المعلمين الأفذاذ الذين عرفوا أطباع تلاميذهم ، ثم لقنوهم الدروس التى لم تكن فى يوم أسمى من تفكيرهم ولا أعلا من إدراكهم أو أكبر من عقولهم ، ولكنها خلقت منهم قادة ممتازين لأنها تدرجت معهم تدرجا منطقياً .

* * *

وإذا قلنا إن صفات محمد الشخصية النادرة هى التى استطاعت أن تحرز له هذا النصر المؤزر فى شبه الجزيرة العربية ، فكيف يمكننا أن نعلل أسباب الغزو اليسير اللين الذى قام به خلفاؤه من بعده ، واستطاعوا به أن يمتلكوا نصف العالم المتمدين وأن ينتصروا بجيوشهم القليلة على الجيوش الكثيرة العدد والعتاد ؟ والتى يقودها أناس شهد لهم التاريخ بالدراسة العسكرية والشجاعة .

كل ما كان يعرفه النبى محمد عن البلاد التى تقع خارج جزيرة العرب والتى تحيط بها جاءه عن أحد طريقين :

أما مشاهداته الشخصية يوم أن سافر مع عمه أول مرة ، وأيام أن كان يشتغل بالتجارة بين الحجاز والشام كغيره من العرب .

أو عن طريق المعلومات التى كان ينقلها اللاجئون من المسيحيين واليهود الذين فروا بدياناتهم من الاضطهادات المتعددة ، وجاءوا يستوطنون بلاد العرب .

فإذا كان محمد عليه السلام قد انتصر وحقق ماجاء من أجله داخل بلاد العرب وخارجها ، لأنه أدرك ببصره النافذ رغبات هؤلاء الناس ؛ فإن هذا يعتبر عملا لامثيل له .

وإذا كانت هذه الناحية تحتاج إلى دراسة فإن هناك نواحى كثيرة فى حياة النبى محمد تحتاج إلى مثل هذه الدراسة .

فنحن فى حاجة إلى أن ندرس كيف استطاع أن يبث هذا الإخلاص النادر وهذه الحماسة المتدفقة فى نفوس أتباعه الذين أصبحوا نماذج لهذه الصفات والمواهب النادرة التى تجلت فى الزعماء المسلمين الذين اصطنعهم محمد عليه السلام على عينه أمثال الخليفة عمر بن الخطاب والقائد خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ؛ وكثيرين غيرهم ممن ملأت سيرتهم سمع الدنيا وخلدهم التاريخ .

والحق إن هذا الحماس المتدفق وهذه السياسة الفريدة التى أذهلت الناس لم يكن يقدر لها النجاح فى نصف العالم المتمدين لو لم يكن العالم مستعداً لقبولها . ولو لم تكن تحمل فى جوهرها زادا طيبا صالحا من الحق والخير .